أفعال الكلام التوجيهية في كتاب الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ت٣١٨هـ دراسة تداولية

الباحث / محسن علي أحمد محمد

ملخص:

هذه الدراسة تدور حول مدونة الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ت٣٢٠هـ، وقد قام الباحث بدراسة أفعال الكلام التوجيهية لهذه الأمثال دراسة تداولية، فعرض نماذج من أمثال الكتاب الكريم، ومن أمثال السنة النبوية الشريفة، وأقوال للعلماء والحكماء، مستقاة من الكتاب والسنة، واتبع في تقسيم البحث لتقسيم صاحب المدونة، ثم تحليل هذه الأمثال وفقا لهذه النظرية التي تهتم بمفردات عملية الاتصال أثناء الكلام، ومراعاة المتكلمين، فضلا عن اهتمامها باستقراء المعنى، ودراسته من خلال السياق، مع مراعاة الظروف المحيطة به، ومن هذا المنطلق جاء تطبيق هذه النظرية على الأمثال، بثمرات طيبة في فهم المعنى الكامن للمثل، ومن ثمَّ فهي محاولة تحويل النص إلى أفعال منجزة.

Abstract:

This study revolves around the Code of Proverbs from the Book and the Sunnah of Al-Hakim Al-Tirmidhi, d. ٣٢٠ A.H. in the division. Refer to the division of the owner of the blog, then analyze these proverbs according to this theory, which is concerned with the vocabulary of the communication process during speech, and taking into account the speakers, as well as an interest in extrapolating the meaning, and studying it through the environment, taking into account the circumstances surrounding it, and from this point came the application of this theory to the proverbs, Hence, it helps you convert the text into action verbs.

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم أما بعد:

قال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوالْأَلْبَابِ)[1]، فالله سبحانه وتعالى قد اختار اللسان العربي؛ مظهرا لوحيه، فكان أفصح الألسن، وأكثر اللغات تحملا للمعاني مع إيجاز اللفظ، فتحدى العرب مع فصاحتهم أن يأتوا بمثله، فصار معجزة؛ ليكون آية دالة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم.

لهذا وغيره عُدت العلوم العربية من أرفع العلوم وأنفعها، ومن بين هذه العلوم – العلوم اللسانية واللغوية – وقد كانت هذه العلوم كسابقتها من العلوم مرت على عدة مراحل؛ لتصل إلى الاهتمام بعناصر العملية التواصلية، والعلاقة التي تربط النشاط اللغوي بمستعمليه، وهذا ما ظهر جليا في التيار التداولي، والذي يهتم بكيفية استخدام العلامات اللغوية، وعلاقتها بالمحيط والسياقات المتنوعة.

وبالرغم مما حققته التداولية من نجاح في البحث اللساني الحديث، إلا أنه لا يمكننا إنكار أن البحث في هذا التخصص كان منذ القدم، وبالتحديد عند العرب الذين تطرقوا إليه في نظرية الخبر والإنشاء، فهم لم يستعملوها بمصطلحها الحديث، إلا أنها كانت ضمن أنساق، وسياقات بلاغية، ونحوية، وكلامية، وأصولية، وغيرها.

وقد طرحت التداولية أفكارا مختلفة ومتنوعة، ومن هذه الأفكار نظرية " أفعال الكلام" التي بسطها " جون أوستين" ثم جاء بعده "جون سيرل"؛ ليكملها بقواعد، وقوانين مستقاه من هذه النظرية، وقد آثرنا أن تكون " الأفعال الكلامية " هي الجانب التطبيقي في هذا البحث، فغايتنا استثمار هذه النظرية في قراءة الموروث اللساني العربي، ومحاولة التأصيل لهذه النظرية في التراث اللغوي العربي؛ لهذا جاء البحث موسوما بـــــ: أفعال الكلام التوجيهية في كتاب الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ت٣١٨هـــ، دراسة تداولية.

مدخل إلى التوجيهيات

سوف نتناول بإذن الله تعالى في هذا المبحث القسم الثاني من أقسام الفعل الكلامي حسب تصنيف سيرل وهو(التوجيهيات (Directives)، ويطلق عليها الأمريات، أو الطلبيات،

[1] – سورة ص، آية (٢٩).

وهي نوع من أفعال الكلام التي عمد إليها سيرل في تقسيمه، فهي توافق كثيرا أفعال القرارات أو الممارسات أو السلوك عند أوستين، وغرضها الإنجازي " محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما، أو التأثير عليه ليفعل شيئا معينا"[١] وتتخذ شكل طلبات، أو أوامر، أو مقترحات.

وقد وقف العرب عند الأفعال التوجيهية، فقسموها بحسب ورودها في سياق النص منطلقين من قصدية المتكلم؛ فجعلوا أفعال الأمر قسمين: الأفعال الحقيقية، والأفعال المجازية، وكذلك النهي حقيقي، ومجازي مراعين بذلك سلطة المتكلم، ومرتبة المخاطب، فما صدر ممن هو أعلى إلى ما هو أدنى، هو أمر حقيقي، وما صدر ممن هو أدنى إلى ما هو أعلى فهو أمر مجازي يراد به الدعاء، أما إذا صدر الفعل من متكلم بنفس رتبة المخاطب؛ فيسمى التماسا. "فالأمر مطلق الزمن، فلا يقترن بالحدث إلا بعد وقوعه، وهو لم يقع وأن فعل الأمر منقطع الاستقبال، والأصل فيه أنه طلب الحدوث في الحال عقب الأمر"[٢].

وقد عرف سيرل التوجيهيات قائلا " هي محاولة جعل المستمع يتصرف بطريقة تجعل من تصرفه متلائما مع المحتوى الخبري للتوجيه، وتتوفر النماذج على التوجيهيات في الأوامر، والنواهي، والطلبيات، واتجاه الملائمة هو دائما من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق النفسي المعبر عنه هو دائما الرغبة، وكل توجيه هو تعبير عن رغبة بأن يقوم المستمع بالفعل الموجَّه به، والتوجيهيات من طراز الأوامر والطلبيات، لا يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، لكن يمكن أن تطاع أو تهمل، أو يخضع لها أو تستنكر"[٣].

وتنقسم التوجيهيات إلى قسمين:

التوجيهيات الطلبية: وهي " تمثل محاولة المتكلم توجيه المتلقي، أو التأثير عليه ليفعل شيئا ما، مع عدم احتواء التوجيه غالبا على جانب شعوري، وهذا الطلب يجب أن يكون طلبا قابلا للتنفيذ سواء أرغب المتلقي بتنفيذه أم لم يرغب.

التوجيهيات نفسية: وهي توجيهيات تصدر عن المتكلم في شكل إنفعال يعبر عنه متوجها به إلى المتلقي بالدرجة الأولى لكي يحثه أو يدفعه أو يحرك مشاعره؛ ليؤدي بعد

---

[١] – علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص ٦٢ .

[٢] – نهلة فيصل الأحمد: التفاعل النصي (التناصية النظرية والمنهج)، ٢٨٧– ٢٨٨.

[٣] – جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ص ٢١٨ .

ذلك فعلا من الأفعال الإنجازية، أو لكي يترك أو يمتنع عن أداء فعل آخر، ومن التوجيهيات النفسية العتاب والطمأنة"[١].

أولا: التوجيهيات في أمثال الكتاب الكريم

مثل المرائي والمشرك

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[٢].

لقد خاطب الله تبارك وتعالى بهذه الكلمات قلوب المؤمنين، حيث نهاهم عن جُل ما يمكن أن يفسد صدقاتهم، ويضيّع ثواب هذه الحسنات " بعد أن رغب تعالى في الصدقات ونبّه على ما يبطلها وهو المن والأذى نادى عباده المؤمنين فقال: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**... } ناهيا عن إفساد صدقاتهم وإبطال ثوابها فقال:{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} مشبها حال إبطال الصدقات بحال صدقات المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر في بطلانها فقال: { **كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**} وضرب مثلا لبطلان صدقات من يتبع صدقاته منا أو أذى أو يرائي بها الناس أو هو كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر"[٣].

والنية الحسنة لها دور بارز في نفس المتصدق من راحة في النفس وعلامة للقبول، إن كان يُقصد بها وجه الله تبارك وتعالى. وهذا واضح في قول الرماني حيث قال (يَأَيُّهَا الَّذِينَءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى) يريد إبطال الفضل دون الثواب. ويحتمل وجها ثانيا: إبطال موقعها في نفس المعطى. (كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ) القاصد بنفقته الرياء غير مثاب، لأنه لم يقصد وجه الله، فيستحق ثوابه"[٤].

ومن ضلالات ما يعتقده المنافقون في صدقاتهم، أنهم بهذا النفاق قد يقبل الله صدقاتهم، فحاشى لله تعالى أن يقبل نفقة أو صدقة ممن أشرك معه فيها أحدا، فضرب هذا المثل للمرائي في إبطال ثوابه، ولصاحب المن والأذى في إبطال فضله "ووجه الشبه الأمل في حالة تَغُرُّ بالنفع ثم لا تلبث ألا تأتي لآملها بما أمَّله فخاب أمله"[٥]، وهذا واضح في تعليق الحكيم الترمذي حيث قال: ذكر الله مثل المرائي والمشرك كمثل صفوان عليه تراب

---

[١] – علي محمود حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ص ٢١٦ .

[٢] – سورة البقرة: ٢٦٤.

[٣] – أبوبكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٢٥٦/١.

[٤] – الماوردي: تفسير الماوردي = النكت والعيون، ٣٣٩/١.

[٥] – الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٣/ ٤٨– ٤٩.

فأصابه وابل المطر الشديد فلا يبقى من ذلك التراب على ذلك الصفا شيء كذلك صدقة المشرك والمرائي الذي يمن ويؤذي الفقير لا يحصل له شيء من الثواب يوم الجزاء.

وقد ورد في هذه الآية فعل كلامي مباشر تمثل في التوجيه بالإخلاص في النفقة، والنهي عن الرياء في الصدقات، وأفعال أخرى غير مباشرة متمثلة في: الاستهزاء والسخرية، وفي هذا المثل تجسيد للصورة المشينة والمزرية بحال المنافقين، وتجسيم دقيق لضعفهم ووبالهم، وسخرية من أفعالهم، مما ينبغي عليهم تغييرها للأفضل.

التحذير: وذلك في قوله تعالى (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) ففيها "تذييل[1] مقرر لمضمون ما قبلها، والواو اعتراضية، وهذا التذييل مسوق لتحذير المؤمنين من تسرب أحوال الكافرين إلى أعمالهم، فإن من أحوالهم المنَّ على من ينفقون وأذاه"[2].

التعريض"[3]: وفي هذه الآية تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى- على الإنفاق- من خصائص الكفار فلا بدّ للمؤمنين أن يجتنبوها.

وقد تضمن المثل قوة تأثيرية للفعل الإنجازي جعلت من المستمع يبتعد عن كل ما من شأنه أن يبطل صدقته؛ حتى تكون خالصة لوجه الله تعالى فيقبلها الله تعالى منه.

مثل ناقض العهد

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا[4] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) [5].

شبه الله تبارك وتعالى من يبرم عقده وينقضه بعد أن عقده وعاهد عليه، بهذا الذي يعمل هذا العمل الجنوني، وهو نقض الغزل بعد فتله وعقده، ولم يرد بالموصول امرأة بعينها بل المراد من هذه صفتها.

---

[1] – التذييل: لغةً هو جعل شيء ذيلاً لشيء آخر، والذيل هو آخر كل شيء".(). واصطلاحاً: "تعقيب الجملة بجملة أخرى متفقة معها في المعنى؛ لتأكيد منطوقها أو مفهومها؛ ليظهر المعنى لمن لا يفهمه، ويتقرر عند من فهمه " يُنظر: المعجم الوسيط، لسان العرب، تاج العروس، (ذيل).معترك الأقران، ١/ ٢٧٩، فهو ضرب من التأكيد يؤدي وظائف تداولية متنوعة، ومن هذه الوظائف ما ذكره الزركشي " يظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه " (الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣ / ٦٣). وأيضا ما ذكره العلوي: الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير حقيقة الكلام (المؤيد باللّه: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٣ / ١١١).

[2] – الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٣/ ٥٠.

[3] – التعريض: في الكلام هو ما يقابل التصريح، وهو ليس بكذب؛ بل هو كلام له وجهان أو عدة أو جه، ويكون قصد المتكلم منه أن يفهم السامع خلاف ما يقصده هو .قال ابن منظور في لسان العرب: والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء .

والتعريض " لا يخلو من علاقة بقواعد مبدأ التعاون عند غرايس وخصوصا قاعدة العلاقة، فالتعريض دليل على احترام المرسل لهذا المبدأ من خلال إنتاج الخطاب وفقا لما تطلبه قاعدة العلاقة". يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص(٤٢١).

والعرب كما يقول ابن قتيبة " والعرب تستعمله في كلامها كثيرا، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل شيء ويقولون لا يحسن التّعريض إلّا ثلبا"، يُنظر ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، (١ / ١٦٣).

[4] – النكث: نقض العهد؛ وأراد بهم أهل وقعة الجمل، لأنهم كانوا بايعوه ثم نقضوا بيعته، وقاتلوه، ينظر ابن منظور: لسان العرب، (٢ /١٩٧).

[5] – سورة النحل: ٩٢.

قال الحكيم الترمذي في هذا الموضع: مثل الذي نقض العهد كمثل الغزل التي نقضته تلك المرأة الحمقاء كان لعمرو بن كعب بن سعد بنت تسمى ريطة، وكانت إذا غزلت الصوف أو شيئا آخر نقضته لحمقها، فقال ولا تنقضوا أي لا تنكثوا العهود بعد توكيدها كما نقضت تلك الحمقاء غزلها من بعد قوة من بعد إبرامه أنكاثا يعني نقضا فلا هو غزل تنتفع به ولا صوف ينتفع به فكذا الذي يعطي العهد ثم ينقضه، لا هو وفي بالعهد إذا أعطاه، ولا هو ترك العهد فلم يعطه" والمعنى: تجعلون أيمانكم الحقيقة بأن تكون معظمة وصالحة فتجعلونها فاسدة كاذبة، فيكون وصف الأيمان بالدخل حقيقة عقلية، أو تجعلونها سبب فساد بينكم إذ تجعلونها وسيلة للغدر والمكر فيكون وصف الأيمان بالدخل مجازا عقليا.

ووجه الفساد أنها تقتضي اطمئنان المتحالفين فإذا نقضها أحد الجانبين، فقد تسبب في الخصام والحقد. وهذا تحذير لهم، وتخويف من سوء عاقبة نقض اليمين، وليس بمقتضى أن نقضا حدث فيهم "[1].

وفي قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) زيادة تأكيد لوجوب الوفاء، وتحريم النقض "أي لا تكونوا في نقض الأيمان كهذه المرأة التي تنقض غزلها من بعد ما بذلت من مجهود في الغزل، فهذه الصورة لا تتوقف عند نقل المعنى الذهني (وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها) وإنما تتكامل وتدخل في داخل السياق، وتتفاعل معه؛ لتوضح وتصور حال من يبرم العقد وينقضه بالمرأة الحمقاء الرأي والفكر، فهي تنسج غزلها بعد النقض "وصورة المرأة هذه تمثّل العبث، وضعف الإرادة، فالإنسان القوي السوي، لا يرضى أن يكون حاله مثل هذه المرأة المصابة في عقلها وإرادتها، وسلوكها، فيعيش حياة عابثة بدون هدف أو غاية"[2].

وقال ابن قيم الجوزية في من نقض شيئا بعد أن أثبته "دل على أن كل ما كان إثباته مؤديا إلى نفيه وإبطاله كان باطلا"[3].

وضرب مثلا آخر لناقض العهد فقال (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دخلا بَيْنكُم فتزل قدم بعد ثُبُوتهَا وتذوقوا السوء بِمَا صددتم عَن سَبِيل الله وَلكم عَذَاب عَظِيم).

---

[1] – الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١٤ / ٢٦٧.

[2] – عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ١ / ١٠٦.

[3] – ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٣ / ٢٠٢.

وتضمنت الآية فعل كلامي مباشر تمثل في النهي عن هذه الأفعال التي لا تحمد نتيجتها، والتوجيه بالوفاء بالأيمان والعهود، وخرج هذا الفعل الكلامي عن المعنى المباشر إلى معاني وأفعال غير مباشرة منها:

التحذير: فقد حذر الله تبارك وتعالى وشنع من يخلف العهد وينقض أيمانه من سوء العاقبة، فإن لنقض العهد فساد كبير، ونتائج وخيمة منها الخصام، والغل، والحقد، فجزئيات هذا التشبيه تشوه نقض العهد والعقد في النفوس وتقبحه في القلوب، فما يطيب لإنسان كريمة نفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة في أفعالها الجنونية التي يأنف ويرفض الإنسان أن يكون ممثلا لها. وينهانا الشرع عن اتخاذ الأيمان ذريعة للغش، في مقابل أنه لا يقر تعاهدا ولا تعاونا على غير البر والتقوى، ويرفض أي تعاهد وتعاون قائم على الإثم.

كما وضحت هذه الآية عظيم قبح نقض الأيمان، بتشبيه حال من ينقض ما عقد من الأيمان بحال امرأة خرقاء، كانت تنسج غزلها ثم تنقضه.

وفي هذا الفعل القولي قوة إنجازية مستمدة من النهي عن نقض العهود، وعظيم الوعد من الله تعالى لهم في قولهر (وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

ولهذا القول قوة تأثيرة في نفس المخاطب تمثلت في الوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الإيمان المؤكدة، عن طريق تشبيه الناقض العهد بعد توكيده بالتي تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه، للحكم على فساد من يفعل ذلك، بعد أن اتفق الناس جميعا على فساد وحماقة من تنكث الغزل من بعد قوة أنكاثا.

ثانيا: التوجيهيات في أمثال السنة النبوية (الحديث النبوي الشريف)

مثل المصلي الذي لا يتم ركوعه وسجوده:

وَرُوِيَ عَن أَبي بردة بن أَبي مُوسَى عَن أَبي سَلام الْأَسود رَضِي الله عَنْهُم أَن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا ينقر فِي صلَاته لَا يتم الرُّكُوع وَالسُّجُود فَقَالَ (لَومَاتَ هَذَا مَاتَ على غير ملَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فَإِذا صليتم فَأتمُّوا الرُّكُوع وَالسُّجُود فَإِن مثل الْمُصَلِّي الَّذِي لَا يتم رُكُوعه ولَا سُجُوده كَمثل الجائع الَّذِي يَأْكُل الْمرة والمرتين لَا تُغنيَانِ عَنهُ شَيْئا).

وجه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث المسلمين بحكم شرعي وهو الاطمئنان في الصلاة والخشوع فيها حتى تكون مقبولة بإذن الله تعالى.

فنجد النبي صلى الله عليه وسلم استخدم فعل قول إنشائي "فَأتمُّوا" وهو من قبيل الأمريات، استمد قوته الإنجازية من صيغة الأمر لغرض التأثير والنصح وتوجيه المخاطبين على القيام بأركان الصلاة بما يتوافق مع الشرع الحنيف، وترك الاستعجال في الصلاة؛ خوفا من عدم قبول الصلاة بسبب ضياع ركن الاطمئنان، كما أن هذا الحديث يحمل التعريض بمن لايتم ركوعه وسجوده في الصلاة، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو خير من يعلم وخير من ينصح.

وفي قوله (مثل الْمُصَلِّي الَّذِي لَا يتم رُكُوعه ولَا سُجُوده كَمثل الجائع الَّذِي يَأْكُل الْمرة والمرتين لَا تُغنيَانِ عَنهُ شَيْئًا)، تنديد وتعريض بهذا الذي لا يتم ركوعه ولا سجوده، فصورته صورة الجائع الذي لا يشبع.

وهذا التصوير البليغ تضمن زجرا وترهيبا لمن لا يقيم ركن الطمأنينة في صلاته، والنهي عن اختصار الصلاة؛ بأن لا يتم ركوعها ولا سجودها، فمن الحكمة النبوية أن يزجر الناس دون ذكر أفعال الزجر"واستدل به على وجوب الطمأنينة في الركوع والسجود، وعلى أن الإخلال بها مبطل للصلاة"[1].

مثل من لعب الميسر:

وَمِنْهَا قَوْله صلى الله عليه وسلم (مثل من لعب الميسر ثمَّ قَامَ يُصَلِّي كَمثل الَّذِي يتَوَضَّأ بالقيح ولَحم الْخِنْزِير ثمَّ قَامَ فصلى فَيَقُول قد يقبل الله صلَاته).

إن الوضوء شرط من شروط الصلاة، فهو يعطي النشاط والحيوية للجسم، كي يدرك الإنسان ما يقوله في الصلاة، ويكون الوضوء بالماء الطاهر النقي، وقد مثل الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يلعب الميسر كأنه يتوضأ بالقيح ودم الخنزير، فكيف يمكن أن يعطي هذا النوع من الوضوء النشاط والحيوية؟

والإنسان الذي يلعب الميسر لا يكون مطمئنا في صلاته، كالذي توضأ بالقيح، وهذا تحذير واضح من لعب الميسر الذي سيتحول مع الوقت إلى عادة لها سيطرة حديدية على سلوك الإنسان، بحيث يصبح مشلول الإرادة، ضعيف إلى درجة لا يمكن معها التوبة إلى الله تعالى.

" قوله صلى الله عليه وسلم «من لعب بالنرد» النرد نوع من اللعب مثله شاغل وقوله صلى الله عليه وسلم «فقد عصى الله» أخبر أن من لعب بها عاص لله عز وجل وذلك

[1] – ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٢/٢٧٥.

يقتضي النهي عن اللعب وهذا عام في اللعب بها على أي وجه كان من قمار أو غيره"[1].

وتنوعت الأفعال في هذا الحديث ما بين ماض (لعب، قام، صلى). ومضارع (يصلي، يتوضأ، يقبل) لكن هذا الحديث انعدم من صيغة فعل الأمر، فقد أفاد الفعل الماضي التقرير، والمضارع الحال والاستقبال.

من هذا الحديث تبين لنا أنه يحمل فعلا كلاميا مباشر وهو التوجيه، وفعل غير مباشر تمثل في:

الترهيب والتحذير وذلك في قوله (من لعب الميسر ثمَّ قَامَ يُصَلِّي كَمثل الَّذِي يتَوَضَّأ بالقيح) فالنبي صلى الله عليه وسلم يحذر كل من يلعب هذه اللعبة بعدم قبول صلاته؛ لأنه بهذه اللعبة يكون كمن توضأ بالقيح، وأكد على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم (فقد عصى الله)، وهذا زيادة في الزجر والحث على ترك هذا الأمر.

والفعل الإنجازي تضمن قوة تأثيرية تجعل المستمع يزدجر وينتهي عن لعب هذه الألعاب التي من شأنها عدم قبول الصلاة.

مثل قارئ القرآن ومثل المنافق القارئ للقرآن وغير القارئ له

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم أَيْضا (مثل الْمُؤمن الَّذِي يقْرَأ الْقُرْآن كَمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب وَمثل الْمُؤمن الَّذِي لَا يقْرَأ الْقُرْآن كَمثل التمرة طعمها طيب وَلَا ريح لَهَا ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها).

في هذا الحديث " تمثيل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان بالطعم، والقرآن بالريح في قوله: "طعمها طيب وريحها طيب" لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن، إذ جريان الكفر عليه قليل نادر، كما أن الطعم ألزم للجوهر من الريح، وأخص به، إذ كثير من الجواهر يذهب ريحها وطعمها باق.

وهذا الحديث يقتضي قسمة رباعية؛ لأن الإنسان إما مؤمن وإما منافق، وكل منهما إما قارئ أو غيره، وكذا الجوهر إما أن يجتمع فيه الطعم، أو الريح، أو ينتفيا، أو يوجد أحدهما دون الآخر"[2].

---

[1] التجيبي: المنتقى شرح الموطأ، ٢٧٨/٧.

[2] – ابن الملقن: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ٢٤ / ١٠٢.

فهذا الحديث الشريف يخلو من الأفعال سوى ما جاء في الفعل يقرأ على صيغة المضارع، وعبّر بصيغة المضارع لإفادة تكريره لها، ومداومته عليها.

أما على مستوى الجمل فيغلب عليها الطابع الإخباري التقريري المناسب؛ لغرض تقرير الحقائق فنجد:

المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة

المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة

والملاحظ على نص الحديث استعمال التشبيهات الحسية والتي غرضها التداولي تقريب الحقائق، وتثبيتها في نفوس السامعين، وفي هذا الحديث تقسيم قائم على ثنائيتين الأولى: المؤمن يقابله المنافق، والثانية: الذي يقرأ القرآن يقابله الذي لا يقرأ القرآن.

فالرسول صلى الله عليه وسلم استعان بأسلوب التدرج والترتيب، كذلك في الشرح والتمثيل، فذكر أن المؤمن الذي يقرأ القرآن يشبه الأترجة، والذي لا يقرأ القرآن، يشبه التمرة، وأما المنافق الذي يقرآ القرآن، مثله مثل الريحانة، والذي لا يقرأ القرآن، مثل الحنظلة.

وشرح هذه الفئات بإعطاء التشبيهات الحسية، هو أسلوب تربوي، غرضه تقريب الحقائق، وإفادة السامع بالخبر؛ لأن ذلك أكثر تأثيرا، وأسرع وأبلغ في نفوس السامعين.

واتجاه المطابقة هنا من الكلمات إلى الواقع، وشرط الإخلاص يكمن في النقل الأمين بأسلوب واضح وجلي، وهادف يبين فضل قراءة القرآن، واختلاف القراءة من مؤمن إلى منافق.

وتضمن هذا الحديث على فعل كلامي مباشر، وهو الإخبار، وبيان لشأن المؤمن، ولعلو قدره، وانحطاط شأن المنافق، وعدم قبول عمله، وفعلين غير مباشرين هما: التوجيه والترغيب: وذلك بما احتواه الحديث من نتائج مترتبة على من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأه، فهذا حض وتوجيه وترغيب في قراءة القرآن الكريم، وبيان فضله وفضل من يقرأه، وأن من قرأ القرآن فله فضله حتى ولوكان منافقا، وإن كان لا يستفيد من هذا الفضل لكن له ميزة، فمن قرأ القرآن فله ميزة على غيره، حتى ولوكان منافقا، وإن كان هذا لا يتصل بالدار الآخرة إذا كان منافقا نفاقا أكبر.

وفي الفعل الإنجازي قوة تأثيرية ترغب المسلم في قراءة القرآن الكريم، والمداومة على القراءة، واستمد الفعل الإنجازي قوته التأثيرية من المقابلة في صفات المؤمن والمنافق

لما لها من عظيم الأثر في ذهن المستمع، فتتفاعل هذه الصورة؛ لتحقق الموعظة والعبرة والأثر الديني الذي هو الهدف من تصوير المثل.

الصيام جنة:

وَمِنْهَا مَا رُوِيَ عَن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قَالَ (الصّيام جنَّة كجنة أحدكُم من الْقِتَال).

فقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الصوم في هذا الحديث وصفا دقيقا فيبين فيه فائدته بالنسبة للصائم فقال: " الصيام جنة " أي وقاية للإنسان من المعاصي، لأنه يكسر الشهوة، ويسد مسالك الشيطان إلى النفس البشرية، فيحميها من الخسران، ويصونها من النيران، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصائم أن يحافظ على وقاية نفسه من كل ما يغضب الله.

وليس في الحديث أفعال، وغياب الفعل غياب صيغة لا غياب دلالة، لأن النظر في مقصد الحديث، يكشف عن وجود فعل الطلب أي: صوموا فإن الصيام وقاية من النار، كالدرع المانع من القتل في القتال، هو حصن حصين من النار، وحماية للصائم من الوقوع في المعاصي، والتداولية بطبيعتها تهتم كثيرا بالمقصد في المقام الأول، كما أن من الصيغ التي يتحقق بها أسلوب الأمر المصدر النائب عن فعل الأمر، فالحديث يتوفر على متتالية تندرج ضمن الأمريات أو التوجيهيات وهي: الصيام جنة

لكن اختيار المصدر وترك فعل الأمر له مبرر تداولي، وذلك بالنظر إلى سياق الحديث وهو سياق تعريف (بفضل الصيام)، فالأمر بالشيء بعد إيضاح ماهيته، وتعريف المسلم بالعبادة وإيقافه على ماهيتها، أدعى لأن يجعله يقبل عليها.

وتضمن هذا الحديث التحذير من الغيبة والنميمة: فأشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بذلك إلى أن الصائم إذا أتى بالغيبة ونحوها، فقد خرق ذلك الساتر له من النار بفعله.

كما اشتمل هذا الفعل الإنجازي على قوة تأثيرية توضح فائدة الصيام، ومن ثمَّ تقوم بالصيام على الوجه المراد وفق ما وضح النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: التوجيهيات في أمثال العلماء والحكماء

مثل الدعوات دون حضور القلب

وكذا مثل دعواته التي تجري على لسانه بدون حضور القلب؛ رغبة ورهبة، كمثل سائل يقف على باب يسأل شيئا، ولم يلبث، ومضى لسبيله، فأخرج له ما طلب، فلم يجدوه

فيدخل في الدار مع ما أخرج له، ويقول لم يمكث السائل على بابنا، فلم يزل هذا دأب هذا المسكين على كل باب، حتى صار محروما، كذا هذا الداعي والتقريب معلوم.

من الواضح أن هذا المثل يصور لنا حال كل من يدعو الله تبارك وتعالى، وقلبه مشغول بغير الله تعالى، فهذا حال قلبه مختلف عن حال لسانه، مثله مثل الذي يقف على الباب يسأل الناس شيئا، ولا يصبر، بل يرحل من باب إلى غيره، فهذا ليس من شأنه أن يُجبر.

وفي قوله " فلم يزل هذا دأب هذا المسكين على كل باب حتى صار محروما " فعل **كلامي غير مباشر، وغاية تواصلية** أريد إيصالها إلى المخاطب من خلال التلفظ بـــ"حتى" التي تفيد الغاية، وهي غاية شبه بها بلوغ الحرمان لهذا المسكين السائل الذي يقف عند كل باب ولم يصبر حتى يُجاب، وقد استمد فعل القول **قوته الإنجازية** من خلال الحذف، فـــ"حتى" غاية لمحذوف تقديره: وما زال هذا المسكين يقف عند كل باب، ولا ينتظر أحدا يجيبه، حتى صار هذا المسكين محروما بسبب قلة صبره، وهذا حال من يدعو الله تعالى ولا يصبر على الإجابة.

والقوة الانجازية في هذه الجملة، يمكن أن يُدل عليها بواسطة مؤشرات ذات طبيعة متباينة، ومن بين هذه المؤشرات، الأدوات التي تحتل في أغلب الأحيان صدارة الجملة. "ومما تجدر الإشارة إليه أن العبارات المتضمنة لقوة مستلزمة مضافة إلى القوة الحرفية يمكن أن تنتقي إما الظروف الإنجازية التي تلائم القوة الأولى، أو الظروف التي تلائم القوة الثانية، إمكانية الانتقاء الاختياري ترتفع عندما يكون الأمر متعلقا بعبارات متضمنة لفعل إنجازي صريح "[1].

وتضمن هذا الفعل الإنجازي قوة تأثيرية متمثلة في توجيه الناس وحثهم على جملة من آداب الدعاء، وأولها حضور القلب في الدعاء، والإخلاص في الدعاء وتيقن الإجابة، والإلحاح في الدعاء، والصبر على إجابة الدعاء، وعدم التسرع في انتظار الإجابة، وعدم القنوط من رحمة الله تبارك وتعالى.

مثل النفس مثل الكرش

مثل النفس مثل الكرش الذي فيه مستنقع البول في المثانة، إذا دلكته بالأرض حتى يرق، ثم نفخت فيه حتى يمتلئ من الريح، ثم ألقيت فيه الزئبق، فإذا أصابته حرارة طار ذلك الزئبق على وجه الأرض دبيبا، فإذا ألقيت فيه مع الزئبق رصاصة أمسكته، فكذلك الشهوات في النفس كالزئبق في تلك الجلدة الممتلئة ريحا هفافة، فإذا ثقلها الإيمان على

[1] – أحمد المتوكل: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص ٨٢.

القلب سكنت النفس عن الطياشة لأن الإيمان بالرحمة ناله العبد، وبرد الرحمة يطفئ نار الشهوة، وإثقال العظمة يسكن طياشة النفس، كثقل الرصاصة سكن تلك الجلدة وألزقها بالأرض.

يوضح لنا العلماء في هذا المثل أن الشهوة لها أثر عظيم على سائر أعضاء الجسد، فتجعل النفس في طياشة وفي حالة عدم استقرار.

وفي هذا المثل نجد أنه تضمن فعلا كلاميا مباشرا، وهو الإخبار بأثر الشهوة على الجسد، وآخر غير مباشر تمثل في توجيه الناس، وحثهم على فعل الخير، والتحذير من الشهوات والهفوات التي تجعل صاحبها في سفاهة وطياشة وفي أدنى المراتب، فالفعل الإنجازي له قوة تأثيرية تجعل المسلم يبتعد عن كل ما من شأنه أن يفسد صفاء قلبه من هذه المعاصي، ومن ثمَّ يلتزم الطاعات والقربات إلى الله تعالى حتى ينال رحمة ربه تعالى.

فمن شأن هذه الشهوات أن تجعل القلب مثل الران، وذلك مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:" إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها قلبه، وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه، فذلك الرَّان الذي ذكر الله في كتابه"[1] {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}[2]

"والآية في الكفار إلا أن المؤمن بارتكابه الذنب يشبههم في اسوداد القلب، ويزداد ذلك بازدياد الذنب. قال ابن الملك: هذه الآية مذكورة في حق الكفار، لكن ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم تخويفا للمؤمنين؛ كي يحترزوا عن كثرة الذنب كيلا تسود قلوبهم كما اسودت قلوب الكفار، ولذا قيل: المعاصي بريد الكفر"[3].

فالجوارح وإن كانت متابعة للقلب، فقد يتأثر القلب بأعمالها للارتباط، والعلاقة التي بين الباطن والظاهر، والقلب مع الجوارح كالملك مع الرعية إن صلح صلحت، ولا يزيل هذا الران، وينقي تلك النكت السوداء إلا حرارة الندم، والتوبة، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

ونتيجة الشهوات في القلب أن تجعله غير مطمئن بذكر الله تعالى، فيحرم نعمة هي من أعظم النعم.

---

[1] – البيهقي: شعب الإيمان، ٣٧٥/٩.

[2] – سورة المطففين: آية ١٤.

[3] – المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٧ /٤٢١.

الخاتمة

وفي الختام أذكر أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث:

- تساهم التداولية في معرفة مقاصد وغايات المتكلم، فتجعل من القصد والسياق قاعدة متينة في مقاربات النصوص المختلفة، وهذا ما لم تهتم به اللسانيات كثيرا؛ وذلك لتركيزها على البنية.
- اللغة وفق هذه النظرية ليست مجرد أداة للتبليغ فحسب، بل هي إلى جانب ذلك وسيلة عمل وتأثير، وهذا ما نراه في الأمثال من إحداث تغيير في المواقف والسلوكيات والعقائد.
- اختلفت التوجيهيات في الأمثال، فمنها ما كان صريحا، ومنها ما كان ضمنيا يفهم من سياق الكلام، وهذا مما انمازت به التداولية، فهي تستشعر اللفظ، وتحيط بكل ما يتعلق بنجاح عملية الاتصال.
- تم تحقيق معظم الأفعال الكلامية في الأمثال بصورة مباشرة وبأخرى غير مباشرة كلما توافرت القرائن الكافية والمناسبة لذلك، وكان للتوجيهيات الضمنية الحظ الأوفر من الأمثال، فيغلب عليها النصح والإرشاد والموعظة الحسنة التي لها عظيم الأثر في نفس المستمع.

المصادر والمراجع:

١) (ابن الملقن) أبوحفص عمر بن علي سراج الدين الشافعي المصري (ت ٨٠٤هـ): التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المحقق، دار النوادر، دمشق – سوريا، ط١، ٢٠٠٨ م.

٢) (ابن حجر العسقلاني) أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت، ١٩٥٩م.

٣) (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ): تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧م.

٤) (ابن قيم الجوزية) محمد بن أبي بكر بن سعد شمس الدين (ت٧٥١هـ): إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٥) (ابن منظور) محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعى (ت٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.

٦) (أبو بكر الجزائري) جابر بن موسى بن عبد القادر(ت١٤٣٩ه): أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، ط ٥، ٢٠٠٣م.

٧) (أبو حيان) محمد بن يوسف أثير الدين الأندلسي (ت٧٤٥ هـ): ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٨) (الأمير) أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل الكحلاني الصنعاني (ت١١٨٢هـ): التنوير شرح الجامع الصغير، تحقيق: محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، ط١، ٢٠١١ م.

٩) (البيهقي) أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي الخراساني(ت ٤٥٨ هـ):

١٠) (التجيبي) أبو الوليد سليمان بن خلف بن الأندلسي (ت٤٧٤هـ): المنتقى شرح الموطأ، مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر، ط١، ١٣٣٢ هـ.

١١) (الجرجاني) أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٢) (الطاهر بن عاشور) محمد الطاهر بن محمد التونسي (ت ١٣٩هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٩٤م.[1] – عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ١ / ١٠٦.

١٣) (الماوردي) أبو الحسن علي بن محمد البغدادي (ت٤٥٠هـ): تفسير الماوردي = النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، بدون تاريخ.

١٤) (المباركفوري) أبو الحسن عبيد الله محمد بن الرحماني (ت١٤١٤هـ): مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، إدارة البحوث العلمية والدعوة – الجامعة السلفية – بنارس الهند، ط٣، ١٩٨٤ م.

١٥) (المؤيد بالله) يحيى بن حمزة الحسيني العلوي الطالبي (ت٧٤٥هـ): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٦) أحمد المتوكل: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، دار الهلال العربية، ط١، ١٩٩٣م.

١٧) جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ٢٠٠٦م.

١٨) شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، ٢٠٠٣م.

١٩) عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط٥، ٢٠٠١م.

٢٠) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٢١) علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠ م.

٢٢) محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠١٤م.

٢٣) نهلة فيصل الأحمد: التفاعل النصي التناصية النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠١٠م.